أ.م.د. وسام مجيد جابر البكري أ.م.د. صباح كاظم بحر م.د. زينة جليل

اللغة والكلام واللسان عند المحدثين

==========

لقد فرَّق الدرس اللساني الحديث (أي: علم اللغة) بين ثلاثة مصطلحات أساسية، وهو تفريقٌ يُعَدُّ قيمةً جديدةً في البحث اللساني الحديث، وتلك المصطلحات هي: اللغة، واللسان، والكلام.

مصطلح (اللغة) عند العرب القدماء:

قبل التطرُّق إلى مفهوم اللغة عند المحدَثين، لا بأس من الإلمام ببعض التعريفات السابقة على تعريف الباحثين المُحدَثين، وهي تعريفات العلماء العرب القدماء. من أشهرها ما يأتي:

يقول ابن جني (ت ٣٩٢ هـ) عن اللغة: أصوات يعبِّر بها كلُّ قوم عن أغراضهم.

ونستشف من تعريف ابن جني ما يأتي:

١- الطبيعة الصوتية للغة في قوله: " اللغة أصوات".
٢- إن وظيفة اللغة الأساسية هي: الاتصال من أجل تحقيق الحاجات والأغراض.
٣- إن لكلِّ قومٍ لغةً تخصهم.
٤- إن اللغة ظاهرة اجتماعية، فهو إذًا يلغي فردية اللغة.

أما ابن خلدون – صاحب المقدِّمة – فيقولُ في حدِّ اللغة: إن "اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلِّم عن مقصوده، وتلك العبارة فعلٌ لسانيٌّ ناشئ عن القصد بإفادة الكلام، فلا بد أن تصير ملَكة متقررة في العضو الفاعل لها، وهو اللسان، وهو في كلِّ أمة بحسب اصطلاحاتهم".

نستنتج من تعريف ابن خلدون ما يأتي:

١- وظَّفَ ابن خلدون قوله: (عبارة المتكلِّم عن مقصوده)؛ ليشير إلى الجانب الوظيفيِّ للغة؛ أي: إنه اعتبر اللغة وسيلةً لإيصال ما يقصد المتكلِّم.
٢- قصد ابن خلدون بقوله: (بحسب اصطلاحاتهم) أن لكلِّ قوم لغةً خاصةً بهم.
٣- اللغة ظاهرة اجتماعية عند ابن خلدون، وهذا واضح في قوله: (وهو في كلِّ أمة بحسب اصطلاحاتهم).

أما تعريف اللغة عند الباحثين المُحدَثين، فهي عند أشهرهم (دي سوسير)، أنها: (نظام من الرموز الصوتية الاصطلاحية في أذهان الجماعة اللغوية، تُحقِق التواصلَ بينهم، ويكتسبها الفرد سماعًا من جماعته).

يوجد في التعريف في أعلاه عدة مصطلحات، من الضروري الوقوف عندها، ومن بين هذه المصطلحات:

١. النظام:

في البداية يجب علينا أن نشير إلى شيء مهم، فمعروفٌ لدى الباحثين أن مؤسس (البنيوية) هو دي سوسير – وهو كذلك – إلا أنه في محاضراته لم يستعمل قطُّ كلمة (بِنيَة)؛ وإنما استعمل كلمة (نسق) و (نظام) لكن الفضل الأكبر في بروز المنهج البنيوي في دراسة الظواهر اللغوية يرجع إليه، فقد بدأ تعريفه للغة بقوله: "إنها نظام من العلامات"، وفي نظر دي سوسير: ((إن اللغة تعتبر نظامًا مجردًا من العلامات، ويتأسس هذا النظام على العلاقات التي ترتبط بها العلامات لتشكل نظامًا أو بِنية، وهي علاقات يشترك فيها كلُّ أعضاء الجماعة اللغوية، وتمثل المخزون الذهنيَّ لهم)).

نستنتج مما قاله دي سوسير في تعريفه للغة ما يأتي:

١- إن اللغة نظام تجب دراسته على هذا الأساس – بوصفه نظامًا – وبالنظر إلى أجزاء هذا النظام، يقول دي سوسير في هذا الصدد: إن قيمة ((الكل هي في أجزائه، كما أن قيمة الأجزاء تأتي في مكانتها في هذا الكل وذاك؛ ولهذا فإن أهمية العلاقة التركيبية بين الجزء والكل أهميتُها بين الأجزاء وفيما بينها)).
٢- يعد دي سوسير اللغة ظاهرةً اجتماعية، تُستخدم لتحقيق التفاهم (الاتصال) بين الناس.

ولا بد من الإشارة إلى أن دي سوسير يُعَدُّ أول من أدرك أن اللغةَ نظامٌ له قواعد خاصة، وهذا النظام في نظره يستند إلى أساس اتفاق اصطلاحي، وقد انطلق كما أشرنا في البداية من التمييز بين ثلاثة مفاهيم في دراسة اللغة، وهي: اللغة، واللسان، والكلام.

٢. اللغة:

عند دي سوسير ظاهرة عامة يتفرَّد بها الإنسان عن سائر الكائنات، ((إنها ملكة التعبير برموز ناطقة))، يقول: ((فإن نظرنا إلى اللغة في شموليتها وكليتها، نجدها متعددة متباينة الأجناس))، فهي تتكوَّن من مسائل غير متجانسة: مسائل نفسية، مسائل فيزيولوجية، مسائل اجتماعية، مسائل فيزيائية... إلخ، هذا ما جعله يحكم عليها بأنها لا تصلح أن تكون موضوعًا للسانيات؛ ((لأنها لا تمثِّل واقعة اجتماعية خالصة؛ حيث إنها تخصُّ الفرد وتخص الجماعة))؛ أي إنها لا تشتمل على وحدة الموضوع، الذي هو شرط مهم في علمية أيِّ علم.

٣. اللسان:

يقول دي سوسير مجيبًا عن السؤال: ما هو اللسان ؟ في ما يخصنا، فإننا نفرق بين اللسان la langue، وبين اللغة la langage، فليس اللسانُ إلا جزءًا محدودًا من اللغة، وهو جزء أساس لا شك فيه، وبهذا الاعتبار يكون اللسان في الوقت نفسه إنتاجًا مجتمعيًّا حادثًا عن مَلَكَة اللغة، وعن أنواع التواطؤ، والاتفاقات الضرورية التي أقرها المجتمع وسنَّها؛ لكي تتأتى ممارسة هذه المَلَكَة عند الأفراد.

واللسان يُقصد به لغة معيَّنة؛ كالعربية، والألمانية، والفرنسية، والتركية، والإنجليزية... وغيرها من الألسنة، فاللسان la langue ظاهرة اجتماعية تعم جميع الأفراد المنتمين تحت جناح أسرة لسانية واحدة، إنه شبيه بمعجم توجد منه نسخ في الأدمغة وأفراد المجتمع.

من مميزات اللسان التي نجدُها في تعريف دي سوسير أعلاه ما يأتي:

١- اللسان جزء من اللغة.
٢- اللسان متجانس في ذاته.
٣- اللسان ظاهرة اجتماعية.
٤- اللسان يمكن أن يبحث مستقلًّا عن الكلام.
٥- كلُّ ما يتعلق باللسان يمكن تحديده.

لهذا كله جعل دي سوسير (اللسانَ) موضوعَ اللسانيات.

٤. الكلام parole

فهو كلُّ ما يلفظه أفراد المجتمع المعين؛ أي: ما يختارونه من مفردات وتراكيب ناتجة عما تقوم به أعضاء النطق، بالاعتماد على المعرفة المشتركة لدى الجماعة اللغوية المعينة، وشرط الكلام هو وجود متكلم ومستمع؛ إذًا فالكلام إنجاز فردي ملموس لقواعد اللغة، و ((الفردي يقوم على عنصر الاختيار، وعنصر الاختيار لا يمكن التنبؤ به، وما لا يمكن التنبؤ به لا يمكن دراسته دراسة علمية)).

خلاصة القول:

قد ميَّز دي سوسير بين ما هو ملَكة بشرية (اللغة) وما هو تواضع اجتماعي (اللسان)، وما هو إنجاز فردي ملموس بوعيٍ واختيار (الكلام)، وهو تمييز بين ما هو اجتماعيٌّ وفردي، وما هو جوهريٌّ وثانوي.